الأدب المصـــــــرى

بين الردى والنهوض

فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة، نزعة وثابة للأخذ بسبيل الاصلاح والتجديد ، ورغبة ملحة لتقويم الناتىء من كل قديم : إن بتصفيته وتهذيبه ، أو تنقيته وتشذيبه ، بغية مجاراة الزمن الذى يأبى إلا التطور ، ونزولا على حكم العصر الذى نعيش فيـه .

لـكن تلك النزعة المتوثبة ، أو هاتيك الرغبة الملحة ، ماتلبث الواحدة منهما ظهوراً ، أو تبدو طلائعها متلاحمة ،آخذا بعضها برقاب بعض، حتى تقابل بالصد والاعراض آنا ، أو ترمى بالاثم والعدوان آنا آخر .

وهذا الاثم والعدوان، أوذلك الصد والاعراض ، مصدره فئة من الناس ـ لا يخلو منها عصر من العصور ـ ألفت البقاء على القديم، والانتصار لـكل ما يمت بصلة إلى القديم ـ أيا كان نوعه ـ دون نظر إلى النافع والضار منـه، أو تفريق بين الصالح والطالح فيه ؛ ومن ثم تـكون الفوضى المطلقة ، ويصبح الاصلاح، فى بادىء الأمر ، عسيرا أو متعسراً، لاضابط له يحميه ، ولا نظام يقيه .

وقد يبدو لأول وهلة أن أنصار القديم فى النهاية منتصرون، وأن أشياع التجديد منـدحرون، لـكن الأمر على النقيض من ذلك ، إذ ثبت العكس، وأصبح مقرراً فى علم الاجتماع أن الفكرة، أيا كان نوعها ، تخلق لها أنصارها وأعوانها ، مهما لاقت من قيود، أو صادفت من عقبات ؛ ولسنا الآن بصدد التدليل على صحة ذلك، فقد أوضحنا الأمر فيه منذ سبعة شهور . (١)

قد يفهم القارىء لأول وهلة مما تقدم ، أننا من أنصار الجديد، بل قد يفهم أننا من أشد أنصار الجديد وأعوانه ؛ ولسنا نتحرز ممن يفهمنا على هذا النحو ، وإن كنا فى الحق لا نميل إلى اعتناق كل جديد على إطلاقه دون قيد ولا شرط، وإنما نريد ألا يعمم التجديد فى جماع المسائل وأمهات الأمور إلا بمقادير يسيرة ، لا تخرجها عن منطوقها ومألوفها ؛ ومن هذه المسائل التى نقصد : الأدب العربى الخالد، الذى يجب أن يبقى له اسمه ووسمه، مادام فى العالم ناطق بالضاد؛ وفى تفصيل ما أجملنا نقول :

قامت منذ سنوات معدودات فئة تدعو إلى تصيير الأدب العربى ، أو خلق أدب قومى، فصفق لها جماعة من المتأدبين ، وهلل لها جمهرة من الشباب المتحمسين ، ولا ضير فى هذا كله ما داموا للعربية حافظين ؛ لـكن إلى جانب هذه الفئة ، قامت فئة أخرى تدعو إلى خلق أدب مصرى خالص، لا يمت إلى الأدب العربى بصلة ، ولا يرتبط والعروبة بوشيجة أو نسب ، وقد

(١) راجع مقال (حرية الرأي وأنصار الجمود) فى الجزء الخامس من هذه المجلة.

أخذت هذه الفئة الثانية تروج لدعوتها بكل مافيها من قوة وحماس ، واستغلت — أكثر مما استغلت الأولى — روح الشباب المتوثب، وتغنيه بمآثر أجداده القدماء ، وترداده لكلمات: الوطن، والوطنية ، ومصر ، والمصرية ، وما إلى هذه من أسماء ومسميات .

و نود الآن أن تقرر لأصحاب هذه الفكرة الجديدة ، فكرة الأدب المصرى الخالص ، أن فكرتهم على مابها من جدة، لاتقوم على أساس علمى صحيح؛ فهذا الأدب المصرى الخالص، الذى ينادى به أشياعه ، ليس إلا أدباً زائفاً لايعتمد على نفسه، وإنما يعتمد على غيره من الآداب؛ وما من شك فى أن الأدب المصرى فى لحمته وسداه، ليس إلا الأدب العربى مهذباً ، والتفكير العربى ممصراً ، فإن أبى أصحاب الدعوة إلا الانكار، فليدلونا عن اللغة القومية التى بها يكتبون، فإن كانت: الهيروغليفية ، أو القبطية ، أو العامية المصرية — وهذه هى اللغات المصرية — سلمنا لهم بما يدعون، أما إن كانوا يسجلون خواطرهم، ويرسمون أحاسيسهم، بغير لغة من تلك اللغات، فذلك هو المنطق المعكوس بعينه ، والشىء الذى لا يصح فى الأذهان؛ وإنما الذى يستقيم والمنطق ، هو أن لنا أدباً عربياً مصريا: عربياً من حيث اللغة والانشاء ، مصريا من حيث التفكير والأسلوب .

وبعد، فإن أخلاق الناس ، ودقة نفوسهم ، وحدة أذهانهم ، ولون العيش الذى يعيشون، وأساليب الحياة التى يحيون ، وروح الفن الذى يتذوقون ، أمور لا تظهر فى صورة واحدة، ولا يمكن تبيانها إلا فى الأدب وحده ، ومن الأدباء وحدهم، سواء أكانوا كتاباً أو شعراء أو مفكرين ؛ وهؤلاء لايمكن لهم أن يؤدوا الرسالة التى يحملون ، مالم يتذوقوا اللغة التى بها يكتبون ؛ ويلموا بأسرار البلاغة التى بها يتحدثون، ويحفظوا من تاريخ آبائهم وأشعار أجدادهم وتدرج منثورهم مابه يسجلون ؛ فهل يوجد فى مصر الآن ذلك الكاتب أو هذا الشاعر الذى يستطيع أن يؤدى تلك الرسالة بلغة مصرية، أو فى بلاغة قبطية؛ أو فى تورية عامية ، لنستطيع أن نسميه الكاتب المصرى، أو الشاعر المصرى، بالمعنى الذى يجب فهمه من إطلاق الصفة على الموصوف؟

أحسب أن هذا الكاتب أو ذلك الشاعر لاوجود له إلا فى أدمغة الخياليين من المتأدبين وأشباه المتأدبين؛ ولمثل هؤلاء يجب أن نعرفهم أن الكاتب أو الشاعر الذى لاندرك منه نظام حياتنا الاجتماعية، وأحاسيسنا ومشاعرنا النفسانية، لايكون كاتباً ولا شاعراً بحال.

ذلك لأنك تستطيع أن تدرك نظام الحياة وما شابهها من أحاسيس ومشاعر، وإدراك وعادات، وتفكير وأوضاع - سواء أكانت ألمانية أو انجليزية أو فرنسية - من الكاتب الفرنسى أو الشاعر الألمانى أو الروائى الانجليزى ، دون إجهاد فى التفكير أو إمعان فى الاستنتاج، وآية ذلك ماتتبينه من الخلق الثورى فى الشعب الفرنسى من كتابات كتابه وشعرائه: كفيكتور هوجو، وجان جاك روسو، وفولتير، وأناتول فرانس وأمثالهم .

وهذا الذى تجده من قراءتك للأدب الفرنسى، إن كنت من قرائه، تجده فى الأدب الألمانى، متمثلا فى جوت وبتهوفن وفجنر وأترابهم من شعراء الألمان، وإنما بصورة أخرى تخالف الأولى، فهنا ترى الروح الجرمانى الحربى المتأصل فى نفوس الشعب الألمانى، وكذلك تستطيع أن تدرك خلق الرزانة السكسونى من قراءتك لأمثال شكسبير وملتون وولزوبرنارد شو وغيرهم، تستطيع أن تدرك ذلك كله، وإن لم تسافر إلى فرنسا أو ترحل إلى المانيا أو تبرح إلى انجلترا، وهذا هو الأدب القومى الذى يمثل لك أصدق تمثيل خوالج البيئة الموضعية، قبل أن يمثل لك روح الجماعة العام.

وإذن، فالأدب القومى، عند التحقيق، أدب موضعى خالص، لا يترجم إلا عن الحياة الفردية لمجتمع بالذات، ولا يبحث إلا فى العواطف الموضعية لبيئة بالذات، فان تعدى هذه الحدود والأوضاع، يصبح أدباً عالمياً بقدر ما يخفق لواؤه على أنحاء المعمور التى تخضع لهذه الجماعة أو ذلك الشعب الذى نشأ فيه، ومن ثم يتلون فى كل بيئة أو أمة ينزل بها، شيئاً فشيئاً، حتى يكتسب بهذا اللون اليسير نوعاً من القومية المحلية.

مثالنا على ذلك: الأدب العربى القديم، فما من شك فى أنه كان أدباً قوميا بحتاً فى بداءته، فأنت تلمس هذه القومية فى دواوينهم وشعارهم وأخبارهم، فتعرف أى نفوس كانت للعرب، وأى أخلاق كانت تتخلق، وأى خصال كانوا يتحلون؛ وهذه كتب القصص على ضؤولتها وقلتها، بل تلك الحكايات والأمثال العربية على قصرها وإيجازها، كفيلة بأن تطلعك على ما كان للعرب من قلوب واعية، ونفوس ملتهبة، وأعصاب متينة، وأخلاق قوية. تستطيع ن تلمس هذا كله من قراءتك للأدب العربى القديم، ولكنك لا تستطيع فهمه من الأدب الحديث إلا فى القدر اليسير منه، وهو القدر الذى يتصل بالقصة بعض الاتصال، وماذلك إلا لأن الأدب العربى كان فى بداءته أدباً قومياً، فلما انتشر الاسلام - والعربية لغته - خفق علمها فى أكثر البلدان التى نزلت بها، فتلون أدبها، فى كل مكان حطت فيه رحالها، باللون المحلى الضئيل، ومن ثم أصبح أدباً عالمياً: بمرور الزمن، وتعدد المال والنحل، الناطق أهلها بالضاد.

نخلص مما تقدم ومما يأتى إلى أمرين رئيسيين:

أولهما: عالمية الأدب وقف على انتشار لغته، وهى كلما انتشرت، كلما راجت سوقها الأدبية ونفقت منتوجاتها الفكرية، وهذا ما يحاوله الانجليز الآن، ويعملون فى سبيله جادين مستميتين.

ثانيهما: قومية الأدب لا تقوم بغير لغة قومية خاصة، ولا تعدو جماعة بالذات أو شعبا بالذات، كالأدب الزنجى الذى لا نظن أن له مثقال ذرة من الشهرة فى العالم، فهل نود أن يكون هذا نصيب أدبنا العربى، ونحن احفاد العرب، وبلدنا كعبة آمال الناطقين بالضاد، وملتقى الشرق بالغرب؟

نحن لانمانع مطلقاً فى أن يكون لنا أدب قومى نعتز به ونفخر ؛ ولكن على أساس لايتنافى والمعقول ،وما أحسب ذلك الأساس معقولا — بالنسبة لنا — فى غير اللغة العربية ،لغة آبائنا وأجدادنا منذ ثلاثة عشر قرناً أو تزيد ، أفنهدر هذا الكنز الثمين لقاء شعوذة ضعفاء العقول ممن لايستطيع أكثرهم قراءة بيت واحد من الشعر قراءة عربية صحيحة،بقدر ما يستطيعونه فى قراءة ضخام المؤلفات من مؤلفات الفرنج ؟ أجدر بهؤلاء أن يقبعوا فى دورهم ليتذاكروا لغة آبائهم،ويتدارسوا تاريخ أجدادهم، فذلك بهم أحق وأجدر إن كانوا يعقلون،وأكثر إفادة من دعوى فارغة لا يستطيعون الدفاع عنها، لابفصيح القول، ولاصحيح العبارة؛وأنا قمين بأنهم فى اليوم الذى ينتهون من تلك الدراسات سيكونون أول المدافعين عن العرب والعربية،والذائدين عن بيضتها، ويومئذ نستطيع أن نعقد لهم زعامة الأدب ، وأن ندين لهم بالطاعة إن كانوا منتجين ، ويومئذ نتخلص من ذلك الصنف الذى يفزع إلى المؤلفات الغربية أو العربية القديمة،وأخصها كتب القصص ، فيسلبونها أرواحها ، ويسرقونها آثارها ، ثم يذهبون فى الناس شامخى الأنوف، رافعى راية العصيان على الأدب العربى، مدعين فى غير ما صدق ولاولاء، أنهم أتوا للأدب المصرى بجديد.

وبعد،فليست دولة الأدب مستباحة الحرمة لاحراس يحمون زمارها ، ولاأعوان يذودون عن بيضتها، حتى يسلبها هؤلاء تاجها ، وينقضوا عليها انقضاض الصاعقة ، ولكن لها ناموساً لاتجرؤ أية قوة فى الأرض على ثلم كرامته، أو انتهاك حرمته، فهل يعقلون؟

إن كنتم ياهؤلاء ! تودون للأدب المصرى،أو الأدب القومى - إن شئتم - نهوضاً ونجاحا، فاطلبوهما فى لغة العرب، ومؤلفات العرب،ولاضير عليكم فى نحت مالا يستسيغه العصر الحاضر، وصوغه فى قالب لفظى آخر ، بل لاضير عليكم فى إدخال كلمات العالم جميعاً ، بعد صياغتها الصيغة العربية اللازمة،وهذا إن عجزتم عن كلمات أصيلة العروبة .

جددوا فى اللغة بقدر ما تستطيعون ، فما اللغة إلا كائن حى خاضع لناموس التطور والارتقاء ... لكن ! إياكم وتجاوز الحدود؟

عبد العزيز الاسلامبولى

المعرفة فى عامها الثانى

ستصدر «المعرفة» — بإذن الله — فى الشهر المقبل

فى حلة جديدة،لمناسبة دخولها فى عامها الثانى